

من طريقنا النسوي

عائشة والسياسة

الأستاذ سعيد الأفغاني

[بقية ما نشر في العدد الماضي]

ولا يقمن في وهم أحد أن السيدة عائشة كانت تود أن يقتل عثمان ، فالصحيح أنها لم تكن تتوقع كل هذا . ولعلها كانت تتفجع باعتزله ، على رغم تصريح الكثيرين بأنها سعت في قتله . ومن هؤلاء النفيرة بن شعبة ، فإنه دخل على عائشة بعد حادثة الجمل فقالت له : « يا أبا عبد الله ، لو رأيتني يوم الجمل قد أنفذت النصل هودجى حتى وصل بعضها إلى جلدى . » قال لها النفيرة : « وددت والله أن بعضها كان قتلك . » قالت : « يرحمك الله ، ولم تقول هذا ؟ » قال : « لعلها تكون كفارة لك في سبيك على عثمان . » قالت : « أما والله لئن قلت ذلك لما علم الله أنى أريد قتله . ولكن علم الله أنى أردت أن يقاتل فقوتلت (تمرض بما وقع لها يوم الجمل) وأردت أن يرمى فرميت ، وأردت أن يمعى فعصيت ؛ ولو علم منى أنى أردت قتله لقتلت . »

وهي الصادقة فيما قالت ، ولعل الله أن يرضى عنها ويرضى خصومها بما ندمت وكفرت . ولئن قال سعد بن أبي وقاص وقد سئل من قتل عثمان ؟ - : قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسماه على ، فما كان يريد سعد بقولته هذه إلا بيان الأثر غير المباشر لكل منهم ؛ فإن من تتبع مجرى الحوادث بإمعان علم بمد الجميع عن هذه الظنة وليس أدل على رفع السيدة عن مثل هذه الخواطر من دعوتها على قتله عثمان ، الدعوات البليغة الصادرة عن نفس متأثرة ملتاعة (واعلم أن في الفتنة أخاها محمداً) قالت : « قتل الله مذمماً (تعنى أخاها) بسميه على عثمان ، وأصرق دم ابن بديل على ضلالتة ، وساق إلى أعين بن تميم هواناً في بيته ، ورى الأشتر بسهم من سهامه » فما منهم من أحد إلا أدركته - على رواية الطبرى وابن عدي ربه - دعوة عائشة

وذكر صاحب العقد أنها لما قالت بعد مقتل عثمان : « مصصتموه موحى الإماء (الموحى : النسل اللين) حتى إذا تركتموه كالثوب الرخيص (النسيل) تقياً من الناس ، عدوتم عليه فقتلتموه . » قال لها مروان : « هذا عمك ؛ كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه . » فقالت : « والذي آمن به المؤمنون وكفر به

الكافرون ، ما كتبت إليهم بسواد على بياض حتى جلست في مجلسي هذا (١) » فكانوا يرون أنه كتب على لسان علي وعلى لسانها كما كتب على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر . فكان اختلاق هذه الكتب كلها سبباً كبيراً من أسباب الفتنة وغاية ما يؤخذ عليها عدا أقوالها السابقة الشديدة في عثمان أنها تركته (حين بلغ الحزام الطيبين ، وحين طمع فيه من لا يدفع عن نفسه) - كما وصف هو نفسه (٢) - في أحد الحصار وأحر الظلم وخلصت إلى مكة . وقد كان راسلها عثمان في أمرها وطلب نجاتها وجاءها مروان بن الحكم فقال : « يا أم المؤمنين لو أقت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل . » فقالت : « أريد أن يصنع بي كما صنع بأب حبيبة ثم لا أجد من يعنى ؛ لا والله ولا أعير ، ولا أدري : لإلام يسلم أمر هؤلاء ؟ » كان طلب مروان في محله ، وكان مقامها - لو هي أقامت - ربما نفع ورد عن عثمان ، ولكنها استسلت رحمة الله لوجدتها ، واكتفت أن استتبعت أخاها محمداً أكبر المحرضين على عثمان فأبى لقد وضح من كل ما تقدم أن أثرها لم يكن ضئيلاً في الحوادث التي انتهت بشهادة عثمان : هذه الفاجعة المشؤومة ، بل كان بعيداً بليغاً . وليتها وقفت عند هذا الحد فلم تؤلب الناس على علي وتنص عليه ولايته . فإن طلحة والزبير لما آلت الخلافة إلى علي - وكانا يرجوانها كل لنفسه - وعقدت النية على المطالبة بدم عثمان وتسليم قتلته الذين انضموا إلى جند علي ، وهما بما هما به ؛ رأيا أن أمرها لا يتم إلا بالسيدة عائشة فكانت فتنة ثانية أشام على المسلمين من سابقها طالبت عائشة بدم عثمان واندمت في هذه السبيل - على رغم تحذير المخذرين ، ونصح أمهات المؤمنين - اندفاع الآتي الجارف ، حتى جمعت الجوع وأحاط بها كل طامع وكل ذى نار من أصحاب علي وكل كاره لعل وخلافته ، مع آخرين خرجوا معها عن عقيدة بريئة مغيرين منكرأ أو مطالبين بإقامة الحدود . ثم خرجت بهذه الجماهير من الحجاز حتى وافقت بها العراق . فلم يكن من محيى دون القتال ، ومؤثرنا الشر منتشرون في جماعتها وجماعة علي ، فكان ما كان مما لا تتعرض له في هذه الكلمة لأن أمره مشهور معروف . وسميت هذه الحرب حرب الجمل لأن عائشة كانت فيها في هودج على جمل ؛ وانقسمت هذه النكبة المؤلفة عن عشرة آلاف قتلوا على أقل تقدير .

لرأينا لها في عهد معاوية صولات وجولات ومع هذا فأليك مثلاً
حادثة حجر بن عدى :

كان حجر من سادات أهل العراق ذوى السطوة والمكانة ،
ممن كانوا مع علي وبقوا على عهده بعد مماته ، وقد تحدى سلطة
الخليفة سمرأ عديدة ، وعبث بالأمراء الذين يرسلهم معاوية حتى
ضاق به وبرهطه ذرعاً ، فأمر بحمل حجر وأصحابه ، ثم أشهد عليهم
وقتلهم ، بعد أن كثر الوسطاء في أمره نظراً لمكانته ، ولكن
ذلك لم يشف ما في نفس معاوية من النفيظ ، وكانت عائشة
أرسلت رسولاً إلى معاوية في ذلك ، ولما وصل الرسول كان حجر
قد قتل ، فقال الرسول — وهو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام —
لمعاوية : « أين غاب عنك حلم أبي سفيان ؟ » قال معاوية : « حين
غاب عنى مثلك من حلماء قومي ، وحلمى ابن سمية (يعنى زياداً
عائله) فاحتملت » وبلغ عائشة الخبر فخرت أشد الخزن ، وليس
مثلها من يسكت لمأوية ، ولكن نكبة الجبل زعزعت عزائمها
فصارت تخاف أن يجر الأمر إلى فتنة تراق فيها الدماء وهو
ما لا تستطيع أن تصوره ، وقد أشارت إلى ذلك حين قالت :
« لولا أنا لم تغير شيئاً إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه
لغيرنا قتل حجر . أما والله إن كان — ما علمت — مسلماً حجاً جاك
متمراً (١) »

ولما حج معاوية استأذن على عائشة فأذنت له ، فلما قد قالت :
« يا معاوية ، كيف أمنت أن أخبأ لك من يتتلك ؟ » قال : داهية
الامويين « بيت الأمن دخلت » قالت : « يا معاوية ، أما خشيت الله
في قتل حجر وأصحابه ! » قال : « لست أنا قتلهم ، إنما قتلهم
من شهد عليهم . » (٢)

وهكذا نال الخليفة العظيم ما يستحق من التأييب في حجرة
الرسول على لسان زوجه أم المؤمنين

هذه هي المرأة في صدر تاريخنا الجيد ولكم هو مقامها ،
فلنتنفع بسيرتها ولناخذ لزماننا من كل شيء أحسنه . أما عبرة
هذه الحوادث : فهي أن المرأة لم تخلق قط لتندس أنفها في الخلاقات
السياسية . وكأن الله الذى جعل للنساء تربية الرجال وتدير
البيوت أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية كلقتهم كل تلك الدماء

رحم الله عائشة ، لقد كانت المرأة الوحيدة في التاريخ التى قوضت
مركز خليفة وحاولت نصب خليفة ، وأعلنت حرباً وقادت جموعاً
ثم أرادت تحاشى القتال ؛ فخرج الأمر من يدها إلى يد غوغائها
شأنها في ذلك شأن على رضى الله عنه ، فكان ما ترتد له فرائص
كل مسلم ، كما ذكر فتنة الجبل وما استتبعت من ويلات .

فلنظروا أمر هذه الحرب ، ولنذكر أن عائشة نفسها صارت
كلما ذكرتها بكت حتى تبل ثيابها ندماً وتوبة . ولنتنظر كيف كان
معاوية الداهية الحليم يداريها ويخشى بأسها

بقى الناس ينتظرون إلى السيدة عائشة وسائر أمهات المؤمنين
نظرم إلى المومل الذى يسلمهم كلما نزلت بهم نازلة . هذا إلى نظرة
التقديس والإجلال التى كانت تزداد كلما امتد الزمن وبعد عهد
الناس بزمن الرسول . فكانوا — زيادة على قصدهن للتعليم
والاستفادة — يشكون إليهن ما يلقون من عنت الأمراء وحيث
الحكام ، وكن يتوسطن لهم بما لهن من النفوذ والطاعة على جميع
المسلمين : الخلفاء فن دونهم . سألتها رجل كتاباً توصى به زياداً
في العراق ، فلما قرأه زياد قضى حاجة الرجل وأكرمه ، وكان
أم ما دفعه إلى التلبية أنها نسبته فيه إلى أبي سفيان ، فجعل زياد
يعرض الكتاب على كل زائر منزهوياً به فرحاً . وقد حسب لها
معاوية أكبر الحساب فجعل يداريها ويلاطفها ويكتب إليها يسألها
مرة عن حديث ، ومرة طالباً موعظة وما به من حاجة إلى سؤال
ولا طلب ، وكان جانبها أعظم ما يشاء . أحرق قائده معاوية بن
خديج جثة أخيها محمد في مصر ؛ فبلغها فجزعت أشد الجزع ،
وصارت تقنت على معاوية وعمرو بن الناص دبر كل صلاة (١)
ولما أراد معاوية البيعة ليزيد كان صوت أخيها عبد الرحمن أقوى
صوت ارتفع بالمارضة فجهه إلى معاوية على المدينه مروان بن الحكم
بقوله الصادع : « جثم بها هرقلية كسروية كلما مات كسرى قام
كسرى (٢) » ولما نال مروان من أخيها بالكلام لقي من السيدة
ما لم يكن في حسبانها حتى تدلل لها وخاف بأسها ثم تكفل دهاء
معاوية بالباقي حتى غاب صوت الحق في إنكار هذه البدعة التى
ابتدعها معاوية في أصول الحكم . ولم تنجح السيدة عن معالجة
الشؤون العامة ، ولولا أن يوم الجبل هد منها ومن قوة نفسها

(١) تاريخ الطبرى ج ٦ ص ٦٠

(٢) أنظر — (١) الاجابة للركنى) ص ١٤١ طبع — بين والطبرى